مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد الثاني جمادى الأولى ـ رجب ١٤٢٣هـ ـ يوليو ـ سبتمبر ٢٠٠٢م

- الأمانات المنقولة من الحجرة النبوية إلى إستانبول
- أول كتاب في تاريخ المدينة المنورة
- وقف العلماء والمدرسين في المدينة المنورة
- البيوت التقليدية القديمة في المدينة المنورة
- توسعة خادم الحرمين الشريفين للمسجد النبوي
- المدينة المنورة في الدوريات السعودية

رحلة السبتي إلى المدينة المنورة عام ٦٨٤هـ

ليلى سعيد سويلم الجهني

محاضرة بكلية التربية للبنات
- وزارة المعارف - بالمدينة المنورة

مدخل

كان الأندلسيون - كبقية المسلمين في أقطار الأرض - يتطلعون بشوق ولهفة إلى الحرمين الشريفين، وكانت الرحلة إليهما أمنية غالية، يُعِدُّ لها بعضهم السنوات الطويلة، فإذا قدرها الله له فأداها وعاد إلى بلده ظل منتشيًا بذكرياتها بقية عمره، وربما عكف عليها يرصد أحداثها، ويسجلها – إن أوتي موهبة الكتابة – لتخرج كتابًا يستمتع به الكثيرون، وليعيشوا من خلاله ما عاشه من مشاعر، وعندما نقرأها نحن اليوم لا نستحضر تلك المشاعر وحسب، إنما نستحضر الأماكن المقدسة في لحظة تاريخية مضت، ونتعرف على جوانب كثيرة غامضة عنا؛ عمرانها، سكانها، علماؤها ... وغير ذلك مما اهتم به الرحالة.

وسوف نطوف في الفقرات التالية مع واحد من أولئك الرحالة، ونستجلي من سطوره صورة المدينة المنورة آنئذ، أما الرحالة فهو:

محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله، محب الدين بن رشيد الفهري السَّبْتِيّ: عالم بالأدب، عارف بالتفسير والتاريخ. ولد بسبتة، وولي الخطابة بجامع غرناطة الأعظم، ومات بفاس. رحل إلى مصر والشام والحرمين عام ٦٨٣هـ، وصنف رحلة سماها: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة؛ في سبعة أجزاء. قال ابن حجر عن مصنفه: «فيه من الفوائد شيء كثير، وقفت عليه وانتخبت منه». وله كتب أخرى منها: تلخيص القوانين؛ السَّنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الإمامين البخاري ومسلم في السند المعنعن؛ إفادة النصيح بالتعريف بسناد الجامع الصحيح. وله خطب وقصائد وكتب صغيرة كثيرة[1].

(١) الأعلام: ٦: ٣١٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

رحلته

في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر شوال عام ٦٨٤هـ ؛ أي بعد مرور أكثر من قرن على عبور الرحالة الأندلسي : ابن جبير المدينة المنورة ؛ انطلق الرحالة المغربي : السبتي مرتحلاً من ميدان الحصى بدمشق إلى الديار الحجازية : مكة المكرمة والمدينة المنورة ؛ لأداء الحج وزيارة المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة . ولم يباشر السبتي تدوين تفاصيل رحلته أثناءها كما فعل سلفه ، بل انتظر حتى انتهى منها وعاد إلى دياره ، ثم سجلها[٢] .

استمر هذا الجزء من رحلة السبتي ثلاثة أشهر ونصف الشهر ، مرَّ خلالها - بالإضافة إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة - ببصرى ، فتبوك ، والحِجْر ، والعُلا ، وبدر ، ثم خليص ، وينبع ، والحوراء ، وعقبة أيلة ، فالقاهرة ، ثم الإسكندرية . وكان السبتي يمر بكثير من تلك المدن مروراً عابراً ، وربما بات في بعضها ، أو أقام يوماً أو يومين . ولم تطل إقامته إلا في القاهرة حيث ظل تسعة عشر يوماً ، فمكة المكرمة التي قضى فيها تسعة أيام ، وأخيراً المدينة المنورة التي أقام فيها ستة أيام في المرتين اللتين زارها فيهما ، ثلاثة منها في المرة الأولى ، وثلاثة في الأخيرة .

يغلب على هذا الجزء من الرحلة الطابع العلمي ، إذ تمتلئ بالإفادات واللطائف والاستدلالات اللغوية ، إضافة إلى النقول والأسانيد التي تلقاها السبتي عمن قابلهم وترجم لهم من علماء وأشياخ . ويُظهِر السبتي في رحلته اهتماماً كبيراً بالحديث وتعلمه واستجازة علمائه . وتدل تعليقاته التي يوردها في هذا الجزء على سعة اطلاعه ، وكثرة قراءاته ، إذ لا يكتفي بما لديه ؛ بل يدعمه بنقول من كتب ومصنفات في مجالات متباينة . ومن الكتب التي ينقل عنها على سبيل المثال : الموطأ للإمام مالك ، والمسالك والممالك للبكري ، وتاريخ مكة للأزرقي .

وتكشف الرحلة في كثير من مواضعها عن **حب السبتي للشعر** ؛ إذ لا يكف عن إنشاده بين فينة وأخرى ؛ متأثراً بموقف يمر به مثلما حدث عندما

(٢) تتكون رحلة السبتي من ٧ أجزاء طبع منها حسب ما نعلم ثلاثة أجزاء هي : الثاني والثالث والخامس . وفي الجزء الخامس منها يصف تفاصيل ارتحاله من ميدان الحصى بدمشق ماراً بالمدينة المنورة ، فمكة المكرمة ، ثم القاهرة ومنها إلى الإسكندرية التي ينتهي عندها هذا الجزء .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ناوله أحد أصحابه غصناً من الشيح[٣] ؛ أو عندما أقبل على المدينة المنورة ففاضت أشواقه وقد حال المطر بينه وبين دخولها[٤] . وربما أورد أبياتاً من الشعر مستدلاً بها على اسم موضع من المواضع عند مروره به ؛ مثلما فعل عندما مرَّ ببصرى والعلا[٥] .

ولا يكتفي السبتي بإنشاد الشعر فقط ، بل يستجيز كذلك بعض من لقيهم في رحلته كي ينشد ما سمع منهم ، مثلما يذكر عند لقائه بابن عساكر في مكة المكرمة[٦] .

وتظهر في رحلة السبتي عاطفة دينية قوية . فهو يلتمس العون والتيسير من الله خلال مراحل رحلته[٧] . كما أنه يستنكر ما يشاهده من البدع والمنكرات مثل : إيقاد الشموع على جبل عرفات ؛ ولمس موضع عالٍ من جدار الكعبة المقابل لبابها لأن من لمسه - كما شاع بين العامة - استمسك بالعروة الوثقى[٨] .

ونستشف من بعض التفاصيل التي يوردها في الرحلة حساسيته ورقة طباعه ؛ فنراه **يسبغ معاني خاصة على أشياء عامة** ، ويرى فيها إشارات وبشارات مثلما حدث عندما تجمعت الغيوم وهطل المطر عند إقباله على المدينة المنورة في كلا المرتين اللتين زارها فيهما ، وكأنما أرسل هذا المطر - كما يذكر - : ((هدية إلينا ليطهرنا ، ويفيض من البركات علينا))[٩] .

تتميز لغة السبتي في هذا الجزء من الرحلة بسهولتها ، ولعل ذلك يرجع إلى غلبة الجانب العلمي عليه ؛ فلغة العلم تختلف عن لغة الأدب في سهولتها ، ووضوحها ، وبعدها عن الحشو والتكلف . إضافة إلى أن السبتي نقل في هذا الجزء كثيراً من أسانيد الحديث ، وهذا مجال يتطلب الدقة بحيث لا تحتمل العبارة أكثر من معنى .

---

(٣) انظر الرحلة : ٥ / ١٢ .

(٤) انظر : الرحلة : ٥ / ١٧ .

(٥) انظر : الرحلة : ٥ / ٢ ، ١٥ .

(٦) انظر الرحلة : ٥ / ١٩٣ – ٢٢١ ؛ وابن عساكر هو : عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن محمد ، ابن عساكر الدمشقي المكي (٦١٤ – ٦٨٦ هـ) : حافظ للحديث ، ولد بدمشق ، وانقطع بمكة نحو أربعين عاماً ، ومات بالمدينة . كان قوي المشاركة في العلوم ، له نظم وتصانيف منها : [فضائل أم المؤمنين خديجة] و [فضل رمضان] . وله شعر منظوم . الأعلام : ٤ / ١١ .

(٧) انظر الرحلة : ٥ / ١ .

(٨) انظر الرحلة : ٥ / ٢٦٤ – ٢٦٥ .

(٩) الرحلة : ٥ / ١٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والواقع أن أهم ما يميز هذه الرحلة هو ما تزخر به من تراجم لمن لقيهم الرحالة وأخذ عنهم في الحجاز والقاهرة والإسكندرية. وهي تراجم لعدد غير قليل من العلماء يظهر من خلالها ما حازوه من علوم ومعارف. كما أنها تصف لنا ما كانت عليه الحياة العلمية في بعض المدن الإسلامية – خاصة المدينة المنورة – في ذلك الوقت.

تفاصيل زيارة السبتي للمدينة المنورة

زار السبتي المدينة المنورة خلال رحلته مرتين. أقبل عليها في المرة الأولى عصر يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ذي القعدة عام ٦٨٤ هـ ، قادماً من العلا. وقد حال مطر شديد بين الركب وبين دخول المدينة ؛ فنزل ومن معه بموضع يعرف بـ : عيون حمزة[١٠] ، ومكثوا هناك على مهاد القلق وفرش الشوق :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

وعندما كف المطر ولم يبقَ من الليل عدا ربعه ، رحلوا بعد أن تدفئوا وجففوا ثيابهم قاصدين المدينة ، ودخلوها صباح يوم الأحد الثالث والعشرين من الشهر والعام نفسيهما. وما أن نزل الركب بظاهر المدينة حتى اغتسل السبتي وتجمل ، ثم توجه إلى الحرم النبوي الشريف ؛ فسلم على رسول الله ﷺ وضجيعيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وخرج بعد ذلك لزيارة البقيع ، فقباء حيث صلى في مسجدها. وقد مكث في المدينة ثلاثة أيام وأربع ليالٍ ثم غادرها إلى مكة المكرمة.

عندما انتهى السبتي من أداء الحج عاد إلى المدينة المنورة مرة أخرى. فوصل إلى مشارفها مساء يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة عام ٦٨٤هـ. وكما حدث في المرة الأولى ، حال المطر بينه ومن معه وبين دخول المدينة ، فاضطروا لأن ينتظروا توقفه ، ثم يواصلوا سيرهم باتجاهها حيث دخلوها صباح يوم الخميس الخامس والعشرين من الشهر والعام نفسيهما. وأقام السبتي فيها هذه المرة ثلاثة أيام بلياليها كان خلالها يتردد بين مكان إقامته والحرم النبوي الشريف ؛ إضافة إلى خروجه لزيارة البقيع.

---

(١٠) عيون حمزة : موضع فيه نخيل كثير لأهل المدينة وأوقاف للفقراء وغيرهم ، يقع غرب مشهد حمزة بن عبد المطلب ؛ وشرق الموضع المعروف بالبركة مصرف عين الأزرق ، ينزلها الحاج الشامي في وروده وصدوره ، ويسمونها عيون حمزة لاعتقادهم أنها تنبع من جهة مشهد حمزة ؛ انظر : وفاء الوفا : ١ / ٩ ، ٣ / ٩٨٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المدينة المنورة كما تبدو في الرحلة

(٢ – ١) مما يلفت الانتباه في رحلة السبتي اهتمامه بأسماء المدينة المنورة ؛ حيث يخصص فقرة صغيرة يستعرض فيها بعض تلك الأسماء منها كما يذكر : « مدينة الرسول ، فإذا قيل المدينة - غير مضافة - عُلِمَ أنها هي فصارت كالنجم . وقد سميت في كتاب الله يثرب ، وفي الحديث : (من قال يثرب فليقل المدينة وهي طيبة وطابة والعرباء ، وهي جابرة والمجبورة والمحبة والمحبوبة والقاصمة قصمت الجبابرة ، وينـدد »[١٢] . وإن كان السبتي يفسر معنى اسم واحد من الأسماء التي يذكرها - القاصمة - فإنه يغفل تفسير بقية الأسماء . كما أنه لا يذكر مصادر اشتقاقها ، ويبدو أنه ينقل عن مصدر لا يسميه .

أما في بقية الرحلة فإنه يستخدم اسمين اثنين من أسمائها أكثر من غيرهما هما : المدينة و طيبة ، وذلك بالتناوب تقريباً ؛ فتارة هي المدينة ، وتارة طيبة[١٣] . **ومرة واحدة يسميها : دار الهجرة ، ومرة واحدة كذلك يسميها : مدينة النبي ﷺ**[١٤] . والواقع أن اهتمام السبتي بهذه الناحية ميز رحلته عما سبقها من رحلات ، كما أنه سيميزها عن أخرى ستليها .

(٢ – ٢) تبدو المدينة المنورة التي يصفها لنا الرحالة مدينة صغيرة ، يحيط بها سور تشير إليه بعض العبارات في الرحلة ، حيث يستخدم السبتي كلمتي : الدخول و الخروج لوصف تحركاته أثناء إقامته بالمدينة[١٥] . ولعله يقصد بذلك دخوله وخروجه عبر أبواب سورها . كما أنه يقول عند إقباله عليها : « وحين دنونا من جدران المدينة »[١٦] ، فربما كان يقصد بالجدران جدران سورها المحيط بها . ويمكن أن نفسر سكوت الرحالة عن الإشارة إلى أي توسع عمراني خارج السور بأن بيوت المدينة كانت محصورة داخل سورها .

---

(١١) في نص الحديث اضطراب ، وأصله ما رواه الْبَرَاءِ قَالَ : قال رسول الله ﷺ : (من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل هي طابة هي طابة) رواه أحمد ، مسند الكوفيين ، رقم الحديث : ١٧٧٨٨ .

(١٢) الرحلة : ٥ / ٢٠ .

(١٣) انظر الرحلة : ٥ / ١٦ - ١٧ .

(١٤) انظر الرحلة : ٥ / ١٩ ، ٢١ .

(١٥) انظر الرحلة : ٥ / ١٨ – ١٩ .

(١٦) الرحلة : ٥ / ١٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

(٢ – ٣) يعرض السبتي جانباً من طباع أهل المدينة يظهر رقة شمائلهم ، وحسن تعاملهم مع الزائرين ، إذ ما أن يصل الرحالة وركبه إلى مشارف المدينة حتى يتلقاهم أهلها مرحبين وهم يحملون قليلاً من تمرها - كل قدر استطاعته - هدية للزائرين حتى أن بعضهم « **قد صنعوا عصياً في أطرافها أوعية صغار ، فيجعلون فيها شيئاً من التمر ويناولونه أهل القباب المسترة من بين ستورها** »[١٧] . ويبدو أن انشغال السبتي بزيارة الحرم النبوي الشريف والبقيع وحضور مجالس العلم لم يتح له فرصة لرصد مظاهر أخرى من حياة المدنيين ، إذ لا نجد شيئاً عن أحوالهم عدا الموقف السابق .

(٢ – ٤ – أ) تتضمن رحلة السبتي معلومات متناثرة في ثناياها عن الحرم النبوي الشريف ، غير أن ما تضمنته لا يرقى بإشاراته العابرة المقتضبة إلى ما عرضه ابن جبير في رحلته من معلومات ضافية دقيقة . وتحس الباحثة بالخسارة في هذا الجانب ؛ لأن رحلة السبتي جاءت بعد احتراق المسجد النبوي في عام ٦٥٤هـ وإعادة بنائه ؛ ولو وجدنا وصفاً مفصلاً مثل الذي نجده في رحلة ابن جبير لكان لدينا وثيقة هامة تُرصّد من خلالها **التغيرات الطارئة على المسجد النبوي** بعد ذلك الحدث المفجع .

وكان هذا الحريق قد أتى على المنبر والأبواب والخزائن والشبابيك والصناديق وما حوته من كتب ، كما أتى على كسوة الحجرة الشريفة وكان عددها إحدى عشرة ستارة ، وعلى سقف المسجد المصنوع من الخشب . وذاب الرصاص المصبوب في بعض الأعمدة فسقطت ، ووقع السقف الذي كان يعلو الحجرة الشريفة ، والقبة التي كانت ذخائر المسجد توضع فيها[١٨] .

والحرم كما يصفه السبتي مفروش برمل أحمر إلا ثلاثة مواضع أولها : موضع سجود الإمام حيث غُطي برخام . وهو موضع منخفض عن مستوى المسجد كله ، ويسع مُصَلِيَين متضامَّين . وثانيها : جدار الحجرة الشريفة ، وآخرها : موضع المنبر .

---

(١٧) الرحلة : ٥ / ١٦ . الرحلة : ٥ / ١٦ .

(١٨) انظر : وفاء الوفا : ٥٩٩ – ٦٠٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما المنبر فقد وضع وسط المسجد ، وربما كان يقصد وسط الروضة الشريفة . وينعت الرحالة هذا المنبر بالكريم في أكثر من موضع في رحلته[١٩] ، وربما كان يعتقد أنه المنبر النبوي ، لكن المنبر النبوي كما تبين معنا قبل قليل احترق ضمن الأشياء المحترقة . ولعله كان يصفه بالكريم لكرامة موضعه ، فكل ما في محل الكرام كريم حسبما يذكر هو نفسه في الرحلة[٢٠] . والمنبر المذكور آنفاً هو الذي أرسله الظاهر بيبرس في عام ٦٦٦هـ . وظل هذا المنبر موجوداً في الحرم حتى عام ٧٩٧هـ[٢١] .

ويشير السبتي إلى خزانة قرب الحجرة الشريفة كان الناس يضعون فيها الرسائل الواردة من المدن والأمصار حاملة سلام كاتبيها على رسول الله ﷺ . وقد كتب على وجهها هذان البيتان :

سعدتم به يا زائرين ضريحه ... أمنتم به يوم المعاد من الرجس

سلمتم وأصبحتم بأكناف طيبة ... فطوبى لمن يضحي بطيبة أو يمسي

وقد وضعت الخزانة في الجهة الشمالية من الحجرة الشريفة على زاوية حادة حتى تحول بين المصلي وبين استقبال الحجرة في صلاته كما يفسر السبتي .

أما خطيب الحرم النبوي الشريف وإمامه فقد كان وقتها الأديب اللغوي : **أحمد بن عثمان بن عمر المصري** ، وهو واحد من رجالات العلم الذين ذكرهم السبتي وترجم لهم كما سيمر معنا بعد قليل .

هذا كل ما ذكره السبتي عن الحرم في رحلته ، وكما نلاحظ فإنه قليل وتغيب عنه الدقة التي نجدها لدى ابن جبير . ويرجع ذلك إلى أنه لم يُعنَ بشيء في رحلته قدر عنايته بالعلم وأهله . وليس أدل على ذلك من أن كل ما ورد عن الحرم - على قلته - جاء معظمه أثناء ترجمته لمن لقيهم من علماء ومحدثين[٢٢] .

(٢ - ٤ - ب) أما بالنسبة لبقية مساجد المدينة المنورة ، فإنه لا يذكر أياً منها ما عدا مسجدين اثنين هما **مسجدا : قباء و ذي الحليفة** . خرج إلى الأول منهما ماشياً مقتدياً برسول الله ﷺ ، ثم صلَّى في الموضع الذي قيل إن الرسول ﷺ صلَّى فيه . ولا يصف السبتي بناء المسجد حتى يمكننا معرفة ما طرأ عليه من تغير خاصة أنه جُدِّد في عام ٦٧١هـ .

(١٩) انظر الرحلة : ٥ / ٣٥ ، ٢٧٤ .
(٢٠) انظر الرحلة : ٥ / ٣٧ .
(٢١) انظر : وفاء الوفا : ٢ / ٤٠٧ .
(٢٢) انظر الرحلة : ٥ / ٣٥ ، ٢٧٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما مسجد ذي الحليفة فقد أحرم منه بالحج. وكل ما يذكره عنه أنه لم يعد في الموضع الذي كان فيه أثناء حياة الرسول ﷺ؛ لأن السيول اجتحفت ذلك الموضع. ويُشار هنا إلى أن هذا المسجد لم يلقَ عناية بعمارته إذ أن منارته تهدمت مع مرور الزمن وظلت على وضعها حتى جدد المسجد لأول مرة عام ٨٦١هـ[٢٣]، أي بعد رحلة السبتي بوقت طويل.

(٢ – ٥) حرص السبتي أثناء وجوده في المدينة المنورة على زيارة البقيع وما فيه من مشاهد. واكتفى بتعداد أسماء من مر على قبورهم من الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم وعنهن دون أن يصف هيئة تلك القبور وما عليها من بناء أو قباب. وممن ذكرهم: عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفاطمة بنت أسد رضي الله عنها، والعباس رضي الله عنه، والحسن رضي الله عنه، ومالك بن أنس رضي الله عنه.

(٢ – ٦) رغم قلة ما يرد في رحلة السبتي من معلومات وتفاصيل عن كثير من نواحي الحياة المدنية – الاقتصادية والسياسية مثلاً – في أواخر القرن السابع الهجري؛ فإنه قد **قدَّم لنا صورة واضحة ومتميزة لما كانت عليه الحياة العلمية** في المدينة آنذاك؛ خاصة مع ما يحويه من تراجم علمية لمن لقيهم فيها من علماء الحديث، سواءً كانوا من أهلها أو ممن وفدوا عليها من جهات أخرى.

وكان السبتي قد التقى في المدينة المنورة ثمانية من العلماء والرواة. سبعة منهم في المرة الأولى، والأخير عند عودته إليها مرة أخرى بعد أدائه الحج. وقدم معظم هؤلاء العلماء إلى المدينة زائرين من أصقاع مختلفة؛ فمنهم من جاء من الشام، ومنهم من قدم من العراق، وثَمَّ من أتى من المغرب، وبعضهم جاء من تونس، إضافة إلى قاطني المدينة والمجاورين بها.

- وأول من لقيه السبتي من العلماء الشيخة الكاتبة المحدثة: **أم الخير فاطمة بنت إبراهيم بن محمود البعلبكي المعروف بالبطائحي**. قدمت إلى المدينة زائرة حاجة في ركب الشام. لقيها السبتي واستجازها في الحرم النبوي الشريف ((وهي مستندة إلى جانب رواق الروضة الكريمة المحمدية على

(٢٣) انظر: وفاء الوفا: ٣ / ١٠٠٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ساكنيها السلام ، تجاه رأس المصطفى الكريم »[٢٤] ، وقد جلس بجوارها ابنها . وأسدلت أم الخير كما يصف السبتي جلبابها على وجهها حياءً منها . **وقد أجازته في جميع مروياتها وكتبت له كتاباً بذلك .**

- التقى السبتي بعد ذلك **بعفيف الدين عبد الرحيم بن محمد بن أحمد الزجَّاج** وهو نحوي وفقيه حنبلي ، ومعه ابن أخيه أبو القاسم عبد الحميد بن محمد الزجَّاج ، وكانا قادمين من بغداد للحج والزيارة . وقد اجتمع السبتي بهما مرتين قبل وصوله إلى المدينة الأولى في : وادي الأزرق ، والثانية في : تبوك ، ثم عاد فاجتمع بهما مرة أخرى في الحرم النبوي الشريف ، وأعاد عليهما ما سبق أن استجازهما فيه في وادي الأزرق التماساً منه لبركة المكان .
- التقى السبتي كذلك بالشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن يحي بن محمد الفأسي ، وهو فقيه مالكي من فأس بالمغرب ، وكان مجاوراً وقتها بالمدينة . اجتمع به السبتي في منزله الذي يقع شرق الحرم . وكان الفأسي - رغم تقدمه في السن - حاضر الذهن ، بشوشاً ، لطيفاً . وقد أجاز السبتي في جميع مروياته ، وكتب له كتاباً بذلك بخط حسن مدمج .
- وممن التقاهم أيضاً الشيخ **عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع البصري** ، وهو محدث وفقيه حنبلي مجاور بالمدينة ، ويبدو من لقبه أنه من أهل البصرة . قابله السبتي في الحرم ، واستجازه فيما سمع عليه فأجازه وكتب له بذلك .
- كما التقى بالشيخ المحدث **عماد الدين أبي نصر يوسف بن أبي نصر بن أبي الفرج الشقاري** الذي قدم المدينة زائراً في ركب الشام ، وذلك أمام الحجرة الشريفة في الحرم . واستجازه فيما سمع عليه فأجازه وكتب له بذلك .
- واجتمع السبتي كذلك بإمام الحرم النبوي الشريف وخطيبه الأديب واللغوي **أحمد بن عثمان بن عمر المصري** . ولعله التقاه في الحرم ، إذ لا يحدد مكان التقائه به . وقد استجازه في كل ما قرأه عليه فأجازه وكتب له بذلك . وكان خطه كما يصف السبتي من جيد الخطوط .

(٢٤) الرحلة : ٥ / ٢١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- أخيراً ، اجتمع السبتي عقب عودته من الحج بالشيخ الفقيه المقرئ الحافظ الأديب **أبي الحسن علي ابن إبراهيم بن محمد التجاني** الذي قدم من تونس حاجاً وزائراً . وقد اجتمع به أمام الحجرة الشريفة ، ولمَّا كان التجاني سريع النظم بارعاً فيه فإن السبتي ذكر له البيتين اللذين كتبا على وجه الخزانة الموجودة قرب الحجرة الشريفة - وقد مر معنا ذكرهما من قبل - وطلب منه أن يزيد عليهما ، فما كان من التجاني إلا أن ارتجل قائلاً :

قفوا سلموا هذا ضريح محمد أما تبصرون النور أسنى من الشمس
فصلوا عليه واسألوا وتوسلوا إلى الله بالمبعوث للجن والإنس[٢٥]
وينسى بها الأوطان والأهل إنه يرى بجوار المصطفى غاية الأنس

ولم يذكر السبتي أنه تلقى عنه أو استجازه في رواية شيء ما .

ونستدل من التراجم السابقة على أن المدينة المنورة قد شهدت آنذاك حركة علمية نشطة ، يرجع السبب فيها إلى الاستقرار النسبي الذي عاشته تحت إمرة جماز بن شيحة ؛ فكثرت فيها الكتاتيب ، وحلقات العلم المنعقدة في الحرم النبوي الشريف[٢٦] . ونخرج من خلال تلك التراجم بعدد من الملاحظات التي تبين الملامح العامة للحركة العلمية في المدينة خاصة وفي غيرها من المدن الإسلامية عامة منها :

- **الدور الذي أدته المرأة المسلمة في إغناء تلك الحركة** . فالمرأة المسلمة لم تكن محجوبة أو مقيدة ، بل تمتعت بمكانة رفيعة داخل وخارج البيت . ولم يكن غريباً - كما شهدنا في رحلة السبتي - أن تسمع ، ويقرأ عليها وتمنح إجازة . ولم يكن الناس ليروا في ذلك غضاضة أو انتهاكاً لحرمة أو خرقاً لمحظور . وهكذا اشتهرت - خلال مراحل متباينة من تاريخ الإسلام - أسماء نساء شاركت كل واحدة منهن في مجالها في إثراء الحركة

(٢٥) لا شك أن التوسل برسول الله ﷺ أو غيره من مخلوقات الله بما لا يقدر عليه غير الله شرك ينافي كمال التوحيد .
(٢٦) انظر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة : ٣٩/٢ ، ٢٤٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العلمية وتسيير دفتها ؛ فكان منهن محدثات ، وأديبات ، وشاعرات وغيرهن[٢٧] .

- هناك أيضاً **الأثر الذي أحدثته المساجد في تلك الحركة** . فقد كانت أماكن عبادة ، و منارات علم ومعرفة ، ومراكز إشعاع فكري امتد ليشمل أنحاء كثيرة من العالم . فحول أعمدتها كان العلماء والأساتذة يجلسون وقد التف حولهم طلبة العلم ، ولكل منهم الحق في السؤال أو المقاطعة الهادفة أو الاعتراض المبني على قاعدة سليمة[٢٨] . وكان الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة أول نموذج لتلك المنارات والمراكز ، إذ كان المسلمون يتحلقون حول علماء المدينة وفقهائها يتلقون عنهم علوم اللغة العربية والفقه والحديث[٢٩] . وقد ظل الحرم النبوي الشريف محتفظاً بوظيفته العلمية حتى الوقت الراهن ، وكان كثير من الرحالة - خاصة المغاربة - يقصدون المدينة المنورة ومكة المكرمة لتلقي العلم ؛ بل إن أحدهم ليتشرف بالرواية عن علماء الحجاز[٣٠] .
- من خلال الرحلة نتعرف على ما يشبه **نظام الأستاذ الزائر في** أيامنا الحالية . إذ يفد كثير من العلماء من كل أنحاء العالم الإسلامي آنذاك قاصدين المدينة المنورة ومكة المكرمة للزيارة والحج . وكانوا يغتنمون هذه الفرصة لزيادة معارفهم بلقاء كبار العلماء في المدن التي يمرون بها في طريقهم[٣١] . وفيما يتعلق بالحرم النبوي الشريف فقد كان حافز العلماء للتدريس وتلقي العلم فيه رغبتهم في الثواب الذي وعد به رسول الله ﷺ . فقد روي عن أبي هريرة أنه : (سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَنْ دَخَلَ مَسْجِدَنَا هَذَا يَتَعَلَّمُ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمُهُ كَانَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ دَخَلَهُ لِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَالنَّاظِرِ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ)[٣٢] .

---

(٢٧) انظر : شمس العرب تسطع على الغرب : ٤٧٠ ، ٥٢٢ .

(٢٨) السابق : ٣٩٦ – ٣٩٧ .

(٢٩) انظر : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية : ٢٠٦ .

(٣٠) انظر : رحلة ابن بطوطة : ١١ ؛ المدينة المنورة في رحلة العياشي : ٢٨ ، ٣٩ .

(٣١) انظر : شمس العرب تسطع على الغرب : ٣٩٧ .

(٣٢) رواه أحمد ، مسند باقي المكثرين ، رقم الحديث : ١٠٣٩٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- تكشف الرحلة كذلك عن **الأمانة التي صبغت الحركة العلمية** في ذلك الوقت ، وكانت ركناً مهماً من أركانها . فلم يكن لأحد أن يدرس ما سمعه من أستاذه قبل أن يحصل على إجازة خطية منه بذلك . ويقدم لنا السبتي نموذجاً لتلك الإجازة في أكثر من موضع من رحلته منها استجازته أم الخير البطائحي ونصها : « **قرأت على الشيخة الصالحة أم الخير ... البطائحي تجاه رأس المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم** ، بين قبره ومنبره ، في الرابع والعشرين لذي قعدة ، قلت : أخبركِ - رضي الله عنك - الحسين بن المبارك بن محمد الزبيدي بسماعكِ عليه فأشارت أن نعم قال ، أخبرنا شيخ الوقت أبو الوقت عبد الأول ابن عيسى بن شعيب السجزي الصوفي قراءة عليه ونحن نسمع قال ... الخ »[٣٣] . ويُحرَصُ في الإجازة كما نلاحظ على **إثبات سلسلة الرواة أو الأساتذة** الذي نُقل عنهم المتن الرئيس كاملة حتى لو امتدت صفحات كثيرة ، كما تحوي كذلك إشارة إلى الوقت الذي منحت فيه . وتوازي هذه الإجازات في عصرنا الحالي في قيمتها الشهادات العلمية التي تمنحها الجامعات والكليات . وقد ساهمت في حفظ حقوق المؤلف الفكرية ، فلم ينسب رأي لغير قائله ، ولم تنقل فكرة بغير موافقة صاحبها . ولعل مما يلفت النظر في رحلة السبتي ، أنه لا يقف - لشدة أمانته - عند استجازة رواة الحديث فقط ، إذ نراه يستجيز بعض من لقيهم في رحلته كي ينشد ما سمع منهم من قصائد كابن عساكر مثلاً[٣٤] .

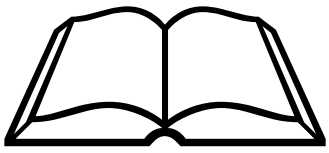

(٣٣) الرحلة : ٥ / ٢١ – ٢٢ .
(٣٤) انظر الرحلة : ٥ / ١٩٣ – ٢٢١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة